اليرموك: كارثة أكبر من مخيم

خليل شاهين*

فرّامة لحم .. وشمعة!

تحلّقنا حول المدفأة فور دخولنا صالة بيت سميح شقير المتواضع، ذات مساء بارد في مخيم اليرموك. وسرعان ما شعرنا بالدفء، وهدأت رجفة الصبايا، قبل أن نكتشف أن شعلة اللهب في مدفأة "المازوت" لم تكن سوى شمعة!

كان شقير يستعد لاستقبالنا من دون أن يملك وقوداً يغذّي اشتعال المدفأة، فاختار حيلة إضاءة شمعة خلف زجاجها. وهي حيلة لجأت إليها في منزلي بالمخيم أيضاً، كلما دعت الحاجة إلى ذلك، وكانت تكفي لإثارة شعور بالدفء النفسي أكثر من الجسدي.

كلما تداعى ناشطون اليوم إلى وقفة إضاءة شموع في "دوّار المنارة" وسط رام الله تضامناً مع اليرموك، تذكرت شمعة سميح. الأولى تبدو إضاءة على إيقاع حشرجة العاجزين عن الفعل، والثانية كانت تشيع دفئاً مستمداً من روح الثورة والأمل في اليرموك.

غنّى سميح في ذلك المساء: "بغرفة صغيرة .. وحنونة .. شو سهرنا .. وضحكنا فيها وغنينا .. أنا وهو .. وبكينا"، في إشارة إلى الفنان عبد الحكيم قطيفان قبل اعتقاله تسعة أعوام في السجون السورية. وغنّى: "رمانة ع خصري وكلاشينكوف بإيدي" تحية لصمود بيروت، و"رجع الخي يا عين لا تدمعيلو فوق كتاف رفقاتو ومحبينو .. رجع الخي يا يمه زغرديلو".

لقد قدّم سميح أجمل ما لديه للفلسطينيين وقضيتهم حتى أخذتهم أنانية الاستحواذ عليه كفلسطيني أكثر من كونه سورياً. لكني شعرت بالقلق عليه كوطنيّ سوري منذ رأيته يُحمل على الأكتاف لدى خروجه أو "إخراجه" من حفل نُظم في المركز الثقافي السوفياتي، ربما في سنة ١٩٨٨. آنذاك، خشيت أن ينتظره مصير قطيفان، وأيقنت أن الأغنية السياسية ستكون وسيلته للتنظير للثورة التي أتت لاحقاً.

اختار سميح الإقامة في بيت متواضع على بعد عشرات الأمتار من منزلي في شارع فرعي على يسار "دوّار فلسطين"، وهي نقطة الدخول إلى المخيم من ناحية يلدا وببيلا، حيث تفر اليوم مئات العائلات من حصار إلى حصار. وظل يغنى هناك للمخيم والجولان،

* صحافي فلسطيني.

مبشراً بالثورة ضد الظلم والاستبداد، ومنشداً: "لو رحل صوتي ما بترحل حناجركم، عيوني على بكرة وقلبي معكم".

لاحقاً، سنكتشف كم يصعب على مخيم اليرموك أن "ينأى بنفسه" عن الصراع في سورية، وألاّ ينتصر لتحريض سميح المقيم بالمخيم على الثورة، وألاّ يعاقَب على قيم الحرية والتعددية ورمزية تسميته بـ "عاصمة الشتات". كيف يفعل ذلك، وقد اختار السوريون ألاّ ينأوا بأنفسهم عن المخيم؟

فتح أهل اليرموك عقولهم وقلوبهم ومساكنهم للسوريين من مختلف المناطق والاتجاهات، فأمن هؤلاء لليرموك أكثر من غيره، بما في ذلك ضباط وجنود كانوا يسوّقون بضائعهم المهَربة والمحملة في مركبات عسكرية قادمة من لبنان عند ساحة "الريجة" وسط المخيم، من دون قلق أو خوف من أي وشاية.

وتمددت أحياءٌ سورية، وأُخرى فلسطينية سورية، على أطراف اليرموك، في حين اختار العديد من المثقفين السوريين الاستفياء بمظلة حرية التعبير عن الرأي التي وفّرها المخيم لهم من دون خشية من أي مخبرين. ومنهم مَن أقام في المخيم، ومنهم مَن استجار به عند الحاجة للتعبير عن الحنق على النظام.

من هؤلاء، كان فنان سوري ذائع الصيت، وهو صديق، قد تنبأ بالموت المقبل في سورية منذ أواسط ثمانينيات القرن الماضي. قال لنا ذات مرة وقد انهار باكياً: اخرجوا من سورية، فهذه البلاد "فرامة لحم". كلنا سنُفرم، وستُفرمون معنا يوماً ما.

ظل يكرر كلمة "فرامة" ويمثّل مشهد إدارة ذراعها، حتى تخيلت جسدي يخرج منها قطعاً صغيرة. مشهد مفزع في حدود الخيال، سرعان ما استحال واقعاً يُفرم فيه السوريون، ومعهم الفلسطينيون، في عملية مستمرة منذ أربعة أعوام.

لاحقاً، عرفت من "معجم المعاني الجامع" أن كلمة الفرم تُستخدم للبشر أيضاً، وأن عبارة "فرَمَ خصمه" تعني "قضى عليه تماماً".

كان صديقنا المحروم آنذاك من سفر يتوق إليه بسبب استحقاق الخدمة الإلزامية في الجيش، يكره لعبة انفصام الشخصية، بين كونه مشيداً بالحزب والنظام في الإعلام، ومنتقداً لهما عندما يستفيء بحرية تعبير عن الرأي في مخيم اليرموك. لذلك، كان المخيم ملاذه عند اشتداد الأزمات، أو لحظات تأنيب الضمير.

وظلّ صديقنا في سورية، مستعيناً بانفصام شخصيته بين منتقد سراً، وموالٍ علناً، على النجاة من الفرم حتى اليوم على الأقل. لذلك، آثرتُ عدم كشف هويته.

نجا سميح أيضاً من الفرم، لكنه رفض لعبة انفصام الشخصية، وانحاز إلى فقراء سورية واليرموك، وانتهى به المقام موقتاً في باريس، مواصلاً التحريض على استعادة قيم التحرر من الظلم والاستبداد، وعلى اللجوء إلى الثورة المغدورة عبر الأغنية وفاعليات المقهى الثقافي الذي أسسه هناك.

أمّا مخيم اليرموك المحاصر والمدمّى باستبدادٍ باسم الدين تارة، والبراميل المتفجرة تارة أُخرى، فيواصل الصمود في مسافة الأمل الفاصلة بين شمعة سميح و"فرامة" صديقنا الفنان. ■